الوسطية و الاعتدال عند علماء المسلمين
ابن قيم الجوزيه (ت٧٥١هـ) إنموذجا

د. رائد أمير عبد الله
مدرس في كلية الآداب/الفسفة
د. خالد عبد الجبار شيت
مدرس في التعليم الإسلامي

ملخص البحث

لقد عني علماء الإسلام ببيان حقيقة الوسطية ونشر ثقافة الاعتدال بين المسلمين ، ونبذ التعصب والغلو في الأفكار والأعمال.. وجسدوها من خلال تجربتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية...

ومن العلماء الذين مثلوا هذا المنهج وساروا عليه ، هو الإمام ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) الذي يعد أحد رواد منهج الاعتدال والوسطية ، حيث يمثل منهجه العقائدي منهجا معتدلا موافقا لما جاء به الإسلام وحث عليه ودعا له ، وهو يسير على خطى سابقيه من العلماء والفقهاء أمثال أبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل ... وغيرهم (رحمهم الله) .

وجهود الإمام ابن القيم تكمن في تأسيس الحوار مع الآخر وتأصيل مناهج النقد والتقويم، ونجد الاعتدال في منهجه واضحا ، متمثلا ذلك في الكثير من مؤلفاته في فنون العلم المتنوعة.

ومن هنا تأتي أهمية دور علماء الأمة في توضيح الجوهر الناصع للعقيدة والنظم الإسلامية القائمة على الوسطية والاعتدال ، وهي مبادئ تعبر عن روح الشريعة الإسلامية وجوهرها .

ويهدف البحث إلى إبراز أهم الخصائص لمنهج الاعتدال ودور العلماء في تطبيق هذا المنهج ونشره ولاسيما عند الإمام ابن قيم الجوزية.

الدراسة تقع في مبحثين مع تمهيد ، تناول التمهيد نبذة مختصرة عن دور العلماء في بث منهج الوسطية والاعتدال ، في حين تناول المبحث الأول توضيح لمفاهيم وعرض خصائص الوسطية والاعتدال في المنهج الإسلامي ، فضلا عن المبحث الثاني الذي تناول العالم ابن قيم الجوزية في إبراز واعتدال منهجه من خلال ذكر أهم المسائل التي تعبر عن وسطية واعتدال منهجه

ومن الله التوفيق.....

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله وصحبه وسلم وبعد:

لقد كان لمنهج الاعتدال عند علماء المسلمين دور كبير في الإصلاح ونهضة الأمة ، وكانوا يركزون على منهج الوسطية والاعتدال باعتباره مكوناً أساسياً في الأطر الإسلامية الفكرية والحياتية ، مما يعزز دور الاعتدال في أداء مهمته على امتداد الساحة العربية والإسلامية. وقد عني علماء الإسلام ببيان حقيقة الوسطية ونشر ثقافة الاعتدال بين المسلمين ، ونبذ التعصب والغلو في الأفكار والأعمال.. وجسدوها من خلال تجربتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية..

ومن العلماء الذين مثلوا هذا المنهج وساروا عليه، هو الإمام ابن قيم الجوزية (رحمه الله) الذي يعد أحد رواد منهج الاعتدال والوسطية ، حيث يمثل منهجه العقائدي منهجا معتدلا موافقا لما جاء به الإسلام وحث عليه ، وهو يسير على خطى سابقيه من العلماء والفقهاء، وجهود الإمام ابن القيم تكمن في تأسيس الحوار مع الآخر وتأصيل مناهج النقد والتقويم، ونجد الوسطية في منهجه متمثلة في الكثير من مؤلفاته في فنون العلم المتنوعة.

ومن هنا يأتي أهمية دور علماء الأمة في توضيح الجوهر الناصع للعقيدة الإسلامية القائمة على الوسطية والاعتدال وهي مبادئ تعبر عن جوهر الشريعة الإسلامية وأساسها.

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على أهم معطيات الإسلام وخصائصه في حياة العلماء المسلمين ، ألا وهي الوسطية والاعتدال .وإبراز أهم الخصائص لمنهج الاعتدال ودور العلماء في تطبيق هذا المنهج ونشره ولاسيما عند الإمام ابن قيم الجوزية.

الدراسة تقع في مبحثين مع تمهيد ، تناول التمهيد نبذة مختصرة عن دور العلماء في بث منهج الوسطية والاعتدال ، في حين تناول المبحث الأول توضيح لمفاهيم وعرض خصائص الوسطية والاعتدال في المنهج الإسلامي ، فضلا عن المبحث الثاني الذي تناول العالم ابن قيم الجوزية في إبراز واعتدال منهجه من خلال ذكر أهم المسائل التي تعبر عن وسطية واعتدال منهجه.

وهذا ولله الأمر من قبل ومن بعد

تمهيد

تميزت الأمة الإسلامية بخاصية منفردة لم تكن لأمة من الأمم السابقة من قبل التميز أو الاتصاف بها سواها، وهي ميزة الوسطية والاعتدال، التي جعلها الله –سبحانه وتعالى– خصيصة لأمة محمد (ﷺ) ، تميزت بها الأمة دون غيرها من الأمم الأخرى عقيدة وشريعة وسلوكا، وهو معنى جديد في الأديان ومنهجا وخلقا سام ورفيع في الدين الإسلامي ، كون أن هذه الرسالة هي في الحقيقة آخر الرسالات وخاتمتها، وكذلك هي دعوة عامة للبشر على خلاف الدعوات السابقة من الأنبياء والرسل من قبل ، كما أن القران الكريم الذي انزل على قلب محمد (ﷺ) كان منهجا ودستورا إلهيا شاملا للبشرية جمعاء بكل ما فيه من قواعد ونظم وأحكام كونها تنسجم مع الفطرة الإنسانية ولا تتنافى مع طبيعة الإنسان والوجود والحياة والعقل والعلم والتقدم والتطور والتغيير، وأنها تستجيب وتلبي للإنسان جميع حاجاته ورغباته الروحية والمادية والعقلية والنفسية بالقدر الذي يضمن للإنسان حياته ووجوده وسعادته وصلاحه وأداء مهمته ووظيفته وفق النواميس الاجتماعية والكونية ، التي تنسجم مع فطرة الوجود، والتي عبر عنها القران في مساحات واسعة من سوره ، والنظر إلى الإنسان باعتبار كونه إنسانا ينتمي إلى المجتمع الإنساني لا من حيث الجنس واللون والقومية والوطن يقول تعالى:(**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**[1] وقوله أيضا: **(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**[2] وقوله: **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** [3] ، فضلا عن كون تلك الأحكام لا سيما منها التشريعية الفقهية التي تستنبط من أحكامها التفصيلية والقواعد العامة لبعض الأحكام والقوانين والنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتصف بالمرونة والشمولية والاتساع ما تعطي الفقيه القدرة في إيجاد للمشكلة الواحدة عدة حلول في حين تعجز بعض الأنظمة الدينية الأخرى والوضعية في أن تجد حلا واحدا مناسبا لمشكلة واحدة ، وهذه الخاصية التي تميز به التشريع الإسلامي جعل منه نظاما يصلح لكل زمان ومكان، ويواكب ويستوعب جميع التطورات والمستجدات على مسرح الحياة ، ولديه القدرة في معالجة جميع المشاكل في مختلف الظروف والعصور والأحوال في أي بقعة من هذه الأرض ، ومن هنا ينبغي أن نشير أو نؤكد بأن تلك الوسطية أو الاعتدال قد اكتملت أصولها في حياة الرسول ﷺ كما رسمها القرآن الكريم، وبينه الرسول: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)**[4] ، وقد خط القرآن الكريم ورسم الرسول (ﷺ) في ذلك ملامح منهج الوسطية والاعتدال ومعالم الطريق بشكل واضح ، وقد دعا رسول الله صحابته الكرام من بعده على الالتزام بهذا المنهج الذي سعى رسول الله (ﷺ) طيلة حياته وسيرته إلى التطبيق الكامل لهذه الوسطية

(١) سورة الملك : ١٤.

(٢) سورة طه : ٥٠.

(٣) سورة القمر : ٤٩.

(٤) سورة المائدة : ٣.

والاعتدال، وحرصه على تربية أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين على مبادئها وقيمها وترسيخ مفاهيمها وأفكارها في عقولهم ونفوسهم حتى باتت طبيعة من طبائعهم وملكة في نفوسهم ، حتى قامت بهم الدنيا ولم تقعد ، وأرسى بهم رسول الله دعائم الإسلام وشيد بهم المجتمع الإسلامي الجديد وبناء المسلم المثالي والنموذجي، فهذه الوسطية خصيصة الأمة الإسلامية بمفهومها الإسلامي المتمثل في لغة القرآن ومعانيه ومواقفه ، فعليه فان الأمة الإسلامية كونها أمة وسطا ، تم إسناد إليها مهمة ومسؤولية ربانية ، حملت بموجبها قيادة عملية التغيير والإصلاح في الحياة البشرية ، وإتاحة الفرصة المناسبة للإنسان لتحقيق مفهوم خلافته في الأرض والغائية من وجوده، ونشر مفاهيم العدل والخير والمساواة في ربوع ارض الله المعمورة بين جميع خلقه، وفق أكمل منهج وأقومه في العقيدة والأخلاق والتشريع، رسالة منه جلا وعلا إلى أتباع هذه الأمة ودعاتها وعلمائها وفقهائها وساستها من السياسيين ورجال الاقتصاد والاجتماع والإعلام وغيرها من النظم والمرافق الحياتية الأخرى ، كما أورده القرآن الكريم وطبقه رسوله الكريم (ﷺ) ، فهي تختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الوسطية والاعتدال عند غير المسلمين ، فالوسطية الإسلامية لا تهدف إلى الجمع بين المتضادين أو المتعارضين، أو التوسط بين النقيضين أو إرضاء الطرفين واتخاذ موقف محايد ، وإنما الهدف من الوسطية أو الاعتدال في الإسلام هو الوصول إلى الحق ودعوة الأمم الأخرى إلى الصراط المستقيم ، بكل أمانة وحب وصدق وإخلاص وتفان كما أنزلت دون زيادة أو نقصان ، وذلك بالأساليب والطرق الحكيمة الرشيدة التي أرشدها الله، ومن هنا ينبغي أن نعرض بعض الملامح الأساسية وأهم سمات منهج الاعتدال أو التوسط الذي بينه رسول خلال حياته من خلال سرد بعض المواقف التي لا تخلو من التوجيهات المحذرة من الغلو، والمرغبة في التيسير والتخفيف ، ومن خلال سيل من المبادئ والقواعد التي جعلت تيار الاعتدال تياراً أصيلاً ضارباً في أعماق التاريخ الإسلامي ..

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ﷺ) قال:" **يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**"(٥) ، وعن ابن مسعود قال:قال رسول الله ﷺ " **هلك المتنطعون** " **قالها ثلاثا**" (٦) أي المتعمقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ يقول: " **لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على**

(٥) رواه ابن ماجه محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (ت ٢٧٣هـ) في سننه ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ، (بيروت/د.ت) ، ٢ /١٠٠٨.

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) في مسنده ، شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت /١٩٩٩م) ، ٢٤ /٢٨٨ .

أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار..."[٧] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" **إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرواح وشيء من الدلجة"**[٨] ، وعن عبد الرحمن بن شبل أن رسول الله ﷺ قال:" **اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَغْلُوا فِيهِ وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ"**[٩] ، قال المناوي[١٠] ولا تغلوا فيه: تجاوزوا حدَّه من حيث لفظه أو معناه بأن تتأولوه بباطل، أوالمراد: لا تبذلوا جهدكم في قراءته وتتركوا غيره من العبادات، فالجفاء عنه: التقصير، والغلو: التعمق فيه، وكلاهما شنيع ، وقد أمر الله بالتوسط في ا لأمور فقال تعالى: **(وَلَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا)**[١١] ، وقد سار الخلفاء الراشدين بعد رسول الله على هذا المنهج ، فعرف أبا بكر الصديق بالرحمة ورقة القلب وعرف عمر الفاروق بالعدل وعثمان بالعفو والصفح والتسامح وعلي بالحكمة ، على الرغم من اتصاف الجميع رضوان الله عليهم بجميع هذه الصفات. وهذا الإمام مالك الذي يقول: " **كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه، وَيُتْرَكُ، إِلاَّ صَاحِبَ هَذَا القَبْرِ**– يعني رسول الله ﷺ - "[١٢]، ولقد سار جمهور الأمة وعلمائها عبر عصور مختلفة عبر التاريخ على نفس هذا المنهج ، فذهب ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) إلى أن الله تعالى إنما وصف المسلمين بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه– ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها[١٣].

---

(٧) رواه أبو داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ) في سننه، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، (بيروت/د.ت) ،٢ /٦٩٣.

(٨) أخرجه ابن حبان محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ) في صحيحه ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/١٩٨٥م) ، ٦٣/٢ .

(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ٢٤ /٢٨٨.

(١٠) محمد عبد الرؤوف المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، صححه احمد عبد السلام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/١٩٩٤م) ، ٢/ ٨٢ .

(١١) سورة الفرقان : ٦٧.

(١٢) الذَهَبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ) ، سير أعلام النبلاء ، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/١٩٩٣م) ،١٥ /٩٥ .

(١٣) الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (ت٣١٠هـ) ، جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/٢٠٠٠ م) ، ٣ /١٤٢ .

- ويقول الإمام الشاطبي (رحمه الله):" **الشريعة جارية في التكليف لمقتضاها على الطريق الوسط العدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ...**" (١٤)

. ويقول الإمام العز بن عبد السلام (رحمه الله): وعلى الجملة فالأولى بالمرء ألا يأتي من أقواله وأعماله إلا بما فيه جلب مصلحة، أو درء مفسدة مع الاعتقاد المتوسط بين الغلو والتقصير. . أما ابن القيم الجوزية(١٥) فبعد أن يؤكد أن دين الله تعالى بين الغالي والجافي، وأن خير الناس النمط الأوسط بعيداً عن تقصير المفرطين وغلو المعتدين ، يقول: " **وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطا، وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط) ، كما يقول رحمه الله: ما من أمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى غلو وإما إلى تقصير، والحق وسط بين ذلك...**" (١٦) ، قال ابن القيم رحمه الله: «**وقد اقتُطع أكثر الناس إلا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي والقليل الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه**» (١٧)

وقد اتضح من النصوص الشرعية المذكورة وغيرها من أقوال العلماء المسلمين وفقهائها أن الإسلام منهج وسط واعتدال في كل شيء، في التصور والاعتقاد والتعبد والتنسك والأخلاق والسلوك والمعاملة والتشريع ، وينهى عن الغلو والتطرف. فالنصوص الإسلامية أنفة الذكر تدعو إلى الاعتدال وتحذر من التشديد والغلو والتنطع والتفريط ، فمن خلال تلك النصوص أصبح من الواضح الجلي أن الإسلام ينفر أشد النفور من هذا الغلو ويحذر منه أشد التحذير. فالاعتدال والوسطية مزية فريدة للإسلام حتى يطمع كثير من الناس أن تحقق للبشرية عملا مهمًا، يقول هاملتون جب: أؤمن بأن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها إلى الإنسانية جمعاء حيث يقف وسطا بين الشرق والغرب، وإنه أثبت أكثر مما أثبت أي نظام سواه مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة ، فإذا لم يكن بدّ من وسيط يسوي ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الإسلام (١٨) .

فوسطية الإسلام تسعى إلى تحقيق منهج في الحياة لإيجاد التوازن في حياة الإنسان

---

(١٤) إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت٥٩٠هـ) ، الموافقات في أصول الفقه ، تحقيق : عبد الله دراز، دار المعرفة ، (بيروت/د.ت) ، ٢ /١٦٣.

(١٥) للاستزادة عن ترجمته ينظر: ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها ، جمال بن محمد السيد.عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م ، ٣/١. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط٢ ، دار السلاسل ، (الكويت ١٤٢٧هـ)

(١٦) ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة ، (بيروت/١٩٧٥م) ، ١٨٢/١.

(١٧) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ /١١٦.

(١٨) أنور الجندى ، عالمية الإسلام ، دار الاعتصام ، ص ٣٧ .

الروحية والمادية وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها، منهج يلتقي فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، لأن الإسلام دين عقيدة ترتكز على المادة والروح معا.

ويقول هاملتون جب: أؤمن بأن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها إلى الإنسانية جمعاء حيث يقف وسطا بين الشرق والغرب، وإنه أثبت أكثر مما أثبت أي نظام سواه مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة، فإذا لم يكن بدّ من وسيط يسوي ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الإسلام [١٩] ....

(١٩) أنور الجندى ، عالمية الإسلام ، ص٣٧ .

المبحث الأول

مفاهيم الوسطية والاعتدال لغة واصطلاحا

ولما كان من الضرورة بمكان تحديد هذا المصطلح على ضوء المصادر اللغوية والشرعية ، منعاً للخلط في المفاهيم واللبس في التصور ، وحتى نقف على حقيقة الوسطية والاعتدال ومجالاتها لنظهر الصورة المشرقة لسماحة هذا الدين ، في الوقت الذي اشتدت فيه الحملة الشرسة الظالمة على الإسلام ونظمه ومنهجه ، ورمي أتباعه بمصطلحات ومسميات موهومة باطلة ، وألفاظ مغرضة ، قصد من ورائها تشويه صورته الناصعة والتنفير منه ؛ تصيداً لأخطاء بعض المنتسبين إليه ، في زمن انقلبت فيه الحقائق ، وانتكست فيه المقاييس، وبلي بعض أهل الإسلام بمجانبة هذا المنهج الوضاء ، فعاشوا حياة الإفراط والتفريط ، وسلكوا مسالك الغلو أو الجفاء ، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ، "**والمنبَتُّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**"(٢٠).

أولا: الوسطية :

لغة : مأخوذة من (وسط) ، وسَطُ الشيء ما بين طرَفَيْه ، ووسَطُ الشيء أَفضلَه وأَعْدَلَه(٢١)؛ وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته(٢٢) : "الوَسَطُ : ما له طرفان مُتساوِيَا القدر ، ويقال ذلك في الكمية المُتَّصلة ؛ كالجسم الواحد ... ووَسْط بالسكون ، يقال في الكمية المُنفصلة ، كشيء يَفصل بين جسمين، نحو: وَسْطُ القوم كذا، والوَسَط تارة يقال فيما له طَرَفان مذمومان؛ يقال: "هذا أوسطهم حَسَبًا"، إذا كان في واسطة قوْمِه، وأرفَعَهم محلاًّ؛ كالجود الذي هو بين الإسراف والبخل، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتَّفْريط، فيمدح به نحو: السواء، والعدل، والنَّصَفَة، ومنه قوله تعالى : {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**}(٢٣)، ومعنى الأمة الوسط أنها أفضل الأمم وأعدلها وأكملها وأبعدها عن الغلو، فمثل هذه الأمة تحميها وسطيتها مما يلحق بأخواتها – إذا جانبت الوسطية– من النقائص والعيوب من جميع النواحي(٢٤) ، ويشير ابن كثير في تفسير هذه الآية

---

(٢٠) رواه البزار وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي(ت٩٧٤هـ)، دار الفكر ، (بيروت/١٤١٢هـ) ،٢٢٩/١.

(٢١) ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ) ، لسان العرب ، ط١ ، دار صادر ، (بيروت/د.ت) ، ٤٢٦/٧. مادة (وسط).

(٢٢) الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥هـ) ، مفردات ألفاظ القران ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، ط١ ، دار القلم ، (دمشق/١٩٩٦م) ، ص٨٦٩.

(٢٣) سورة البقرة : ١٤٣.

(٢٤) أصول المجتمع الإسلامي ، د جمال الدين محمد محمود ، ص ١٧١.

بقوله:"**أي إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هنا عنده رحمه الله معناه الخيار والأجود ، ولما خص الله جلا وعلا هذه الأمة بالوسطية وجعلها وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب** [٢٥].

شرعا : فالوسطية في الشرع تستعمل في معنى الخيار والأفضل والعدل وغير ذلك من المعاني اللغوية ، كما تستعمل بين شيئين وهو الخير، وأنَّ الوسطيَّة هي الدين كله، ما دامت الوسطيَّة لا تخرج عن العدل والخيار والاستقامة والاتزان والقصد، وهل هذه إلاَّ المبادئ التي جاء الإسلام من أجلها، قال ابن القيم رحمه الله : "**والدين كلُّه بين هذين الطرفين ، بل الإسلام قصد بين الملل ، والسنة قصد بين البدع ، ودين الله بين الغالي فيه ، والجافي عنه**"[٢٦] كما يقول (رحمه الله) أيضا: "**وما أمر الله بأمرٍ إلاَّ وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريط وإضاعة، وإمَّا إلى إفراط وغلوٍّ، ودِين الله وَسَطٌ بين الجافي عنه، والغالي فيه ؛ كالوادي بين جبلين، والهُدى بين ضلالتين، والوَسَطِ بين طرفين ذميمين، فكما أنَّ الجافيَ عن الأمر مُضيِّع له ؛ فالغالي فيه مضيِّع له ، هذا بتقصيره عن الحدِّ، وهذا بتجاوزه الحدَّ**[٢٧]، وبعد أن يؤكد أن دين الله تعالى بين الغالي والجافي، وأن خير الناس النمط الأوسط بعيداً عن تقصير المفرطين وغلو المعتدين، يقول: **(وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطا ، وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط)** [٢٨].

ثانيا : الاعتدال:

لغة: العدل : ضد الجور ، وما قام في النفس أنه مستقيم [٢٩] ، والعدل هو التقسيط على سواء[٣٠] ، الاعتدال توسط حال بين حالين في كم أو كيف.

شرعا: هو التزام المنهج العدل الأقوم ، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطع ، وبين التفريط والتقصير ، فالاعتدال والاستقامة وسط بين طرفين هما : الإفراط والتفريط[٣١].

---

(٢٥) تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ١٨١ ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، دار الحديث – القاهرة.

(٢٦) ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة ، دار الكتب العلمية ،(بيروت/١٩٧٥) ، ٢٥٧/١.

(٢٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط٢ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت/١٩٧٣م) ، ٤٩٦/٢.

(٢٨) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، ١٨٢/١.

(٢٩) ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٣٠/١١ . مادة (عدل).

(٣٠) الراغب الاصفهاني ، المفردات ، ص٥٥١.

ثالثا: خصائص الوسطية والاعتدال في المنهج الإسلامي:

من ملامح وسمات الوسطية :

١- **الخيرية :** ان الوسطيَّة تعني الخيريَّة ، سواء أكانت خير الخيرين أو خيرًا بين شرّين ، أو خيرًا بين أمرين متفاوتين، وأنَّ المقياس لتحديد الخيريَّة هو الشرع ، وليس هوى النَّاس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه ، فإنَّ مفهوم الوسطيَّة عند كثير من الناس تعني التّنازل أو التَّساهل بل والمداهنة أحيانًا ، حيث يختارون الأمر بين الخير والشرّ وهو إلى الشرّ أقرب في حقيقته ومآله، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا. (٣٢) ، وأنَّ أيَّ أمر اتَّصف بالخيريَّة والبينيَّة جميعًا فهو الذي يصحّ أن نُطلق عليه وصف: الوسطيَّة ، وما عدا ذلك فلا (٣٣).

٢- **العدل :** جاء وصف هذه الأمة بالوسطيَّة في قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}**(٣٤) ، وصح عنه ﷺ أنَّه فسَّر الوسط هنا بالعدل ، وإذا نظرنا إلى العدل وجدناه يتضمَّن معنى الخيريَّة ، والعدل كذلك يُقابله الظّلم ، والظّلم له طرفان؛ فإذا مال الحاكم إلى أحد الخصمين فقد ظلم ، والعدل وسط بينهما دون حيف إلى أي منهما(٣٥) ، قال ابن القيم (رحمه الله) والصواب:- **(أن العدل وضع الأشياء في مواضعها التي تليق بها وإنزالها منزلتها ، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وقد تسمى الله سبحانه بالحكم العدل)** (٣٦).

٣- **اليسر ورفع الحرج :** ان رفع الحرج والسّماحة والسهولة راجع إلى الوسط والاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالتنطع والتّشديد حرج في جانب عسر التكاليف ، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع (٣٧).

٤- **الحكمة :** الحكمة وهي توخي القصد والاعتدال ، وإدراك العلل والغايات ، ووضع الأمور في نصابها في تبصر وروية وإدراك :{ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**}(٣٨) ، أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود؛ وأوتي إدراك العلل

---

(٣١) مجموعة من العلماء بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ، ط٢، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، (المملكة العربية السعودية/١٤٢٥هـ) ، ٤/١.

(٣٢) ناصر بن سليمان العمر ، الوسطية في ضوء القرآن الكريم ، ص ٨٨.

(٣٣) العمر ، الوسطية في ضوء القرآن الكريم ، ص٣٩.

(٣٤) سورة البقرة: من الآية ١٤٣.

(٣٥) الصلابي، علي محمد، الوسطية في القرآن الكريم ، ط٤ ، دار المعرفة ، (بيروت/٢٠٠٩م) ، ص٣٩.

(٣٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي ، دار الفكر ، (بيروت/١٩٧٨م) ، ٢٧٦/١.

(٣٧) الصلابي ، الوسطية في القرآن الكريم ، ص١١٧.

(٣٨) سورة البقرة : ٢٦٩.

والغايات فلا يضل في تقدير الأمور؛ وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال...[٣٩] ، وجماع الحكمة في قول ابن القيم : "**فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي**"[٤٠].

٥- **الاستقامة :** الوسطية استقامة ولو لم تكن على نهج الاستقامة لكانت انحرافا والانحراف إما إفراط أو تفريط[٤١]. قال ابن القيم : " **فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها : وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله** [٤٢].

٦- **البينية :** أنَّ البينيَّة من لوازم وصفات الوسطيَّة ، إنَّ إطلاق لفظ البينيَّة يدلّ على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء ، وقد يكون ذلك حسًّا أو معنى، وعندما نقول: إنَّ (الوسطيَّة) لا بدّ أن تتَّصف بالبينيَّة ، فإنَّنا لا نعني مجرَّد البينيَّة الظَّرفيَّة ، بل إنَّ الأمر أعمق من ذلك، حيث إنَّ هذه الكلمة تعطي مدلولا عمليًّا على أن هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبُعد عن الغلوّ والتّطرف أو الإفراط والتَّفريط.وبهذا تكون البينيَّة صفة مدح، لا مجرَّد ظرف عابر.ومن هذا التَّفسير جاءت علاقة البينيَّة بالوسطيَّة[٤٣].

---

(٣٩) سيد قطب إبراهيم ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، (القاهرة/د.ت) ، ٣١٢/١.

(٤٠) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٤٧٩/٢.

(٤١) الصلابي ، الوسطية ، ص١٥٩.

(٤٢) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ١٠٥/٢.

(٤٣) الصلابي ، الوسطية ، ص١٦٥.

المبحث الثالث

منهج الوسطية والاعتدال عند الإمام ابن القيم

١- **وسطية الدين :** الوسطية عند الإمام ابن القيم تفهم من وسطية الدين حيث يقول : "**ودين الله وسط بين الجافي عنه ، والغالي فيه كالوادي بين جبلين ، والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له ، فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد** "(٤٤).

٢- **الوسَطِيَّةُ اتِّباعَ الصِّراطِ المُسْتَقيم والثَّباتَ عليه :** قال ابن القيم:" **الصراط المستقيم الذي وصانا الله تعالى بإتباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه وهو قصد السبيل ، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة وإن قاله من قاله ، لكن الجور قد يكون جورا عظيما عن الصراط ، وقد يكون يسيرا وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله وهذا كالطريق الحسي ، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جورا فاحشا ، وقد يجور دون ذلك ، فالميزان الذي يعرف به الاستقامة على الطريق ، والجور عنه هو ما كان رسول الله وأصحابه عليه، والجائر عنه: إما مفرط ظالم أو مجتهد متأول أو مقلد جاهل ، فمنهم المستحق للعقوبة ومنهم المغفور له ومنهم المأجور أجرا واحدا بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله تعالى ورسوله أو تفريطهم ، ونحن نسوق من هدي رسول الله وهدي أصحابه ما يبين أي الفريقين أولى بإتباعه ثم نجيب عما احتجوا به بعون الله وتوفيقه،ونقدم قبل ذلك ذكر النهي عن الغلو وتعدي الحدود والإسراف وأن الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين** "(٤٥).

٣- **الوسطية تعني تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد ،** ومن وسطية ابن القيم انه لا يقف أو يتعصب على فتوى أو مذهب رغم انه حنبلي المذهب ، فلقد عقد ابن القيم في احد مؤلفاته فصلا كاملا تناول فيه هذا المعنى أو المفهوم ، عندما أشار إليه في مقدمة فصله بقوله : " **هذا فصل عظيم النفع جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ،وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى**

---

(٤٤) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٤٩٦/٢.

(٤٥) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ،١٣١/١.

ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ (٤٦).

٤- **<u>الوسطية في الأقوال والأعمال :</u>** فسر الإمام ابن القيم قوله تعالى ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾(٤٧) بأن وجه الاستدلال بالآية انه تعالى اخبر انه جعلهم أمة خيارا عدولا ،هذا حقيقة الوسط فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم ،وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة ، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم فهم شهداؤه ، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم ، لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلى عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم ،والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق فيخبر بالحق مستندا إلى علمه به كما قال تعالى: **{إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** (٤٨)، فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقا من غير علمه به وقد يعلمه ولا يخبر به فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم ، فلو كان علمهم أن يفتى أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفه لحكم الله ورسوله ولا يفتى غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله، إما مع اشتهار فتوى الأول أو بدون اشتهارها كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق، بل انقسموا قسمين قسما أفتى بالباطل ، وقسما سكت عن الحق وهذا من المستحيل ، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعا ، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم لو كان خيرا ما سبقونا إليه(٤٩).

٥- **<u>الوسطية في الفتوى :</u>** إن منهج الاعتدال عند الإمام ابن القيم صفة لازمة من صفاته، بل صار له منهجًا واضحا في حياته العلمية والعملية ، وشهدت مؤلفاته بذلك ، بل نجد عنوان كتابه يدل على ذلك : **(الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية)** ، حيث ذكر فيه الكثير من المسائل المختلف فيها ، وأعطاها الحلول الوسط معتمدا على الحكم بالإمارات فهو يقول: " **وإذا تأملتم الشرع وجدتموه يجوز التعويل على ذلك**"(٥٠) ، ثم يكمل قوله فيما يتوفر في الحاكم من صفات تؤهله في الحكم بين الناس ويبتعد عن الظلم : " **من له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ،**

---

(٤٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ٢/٣.

(٤٧) سورة البقرة آية : ١٤٣.

(٤٨) سورة الزخرف : ٨٦.

(٤٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ١٤٠/٤.

(٥٠) ابن القيم ، الطرق الحكمية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص٤.

تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتاج معها إلى سياسة غيرها ألبتة ، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ؛ وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها "[٥١].

ومن الشواهد والأمثلة على وسطية واعتدال منهج ابن القيم من خلال فتاويه :

مسألة الحكم بشهادة شاهد واحد بدون يمين إذا عرف صدقه:

وقد ذهب طائفة من قضاة السلف العادلين إلى الحكم بشهادة الشاهد الواحد إذا علم صدقه من غير يمين ، قال أبو عبيد:" **روينا عن عظيمين من قضاة أهل العراق شريح وزرارة بن أبي أوفى رحمهما الله، أنهما قضيا بشهادة شاهد واحد ولا ذكر لليمين في حديثهما**[٥٢] ؛ ثم ذكر الحديث :" أن النبي﴿ﷺ﴾ ابتاع فرسا من أعرابي فأسرع النبي ﴿ﷺ﴾ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﴿ﷺ﴾ ابتاعه ، فنادى الأعرابي رسول الله ﴿ﷺ﴾ إن كنت مبتاعا هذا الفرس وإلا بعته فقام النبي ﴿ﷺ﴾ حين سمع نداء الأعرابي، فقال أوليس قد ابتعته منك، قال الأعرابي: لا والله ما بعتك ، فقال النبي ﴿ﷺ﴾: بلى قد ابتعته منك ، فطفق الأعرابي يقول هلم شهيدا ، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبي ﴿ﷺ﴾ على خزيمة، فقال بم تشهد؟ قال بتصديقك يا رسول الله ، فجعل النبي ﴿ﷺ﴾ شهادة خزيمة بشهادة رجلين "[٥٣].

وفي هذا الحديث فوائد عدة منها انه ذكر الاكتفاء بالشاهد الواحد إذا علم صدقه[٥٤] ، ولكن هذه المسألة لا يطلقها على إطلاقها كما يقول المثل : **(يطلق الحبل على الغارب)** ، بل نجده يتخذ موقفا آخر في مسالة الطلاق ، وأَنّهُ لا يُكْتَفَى بِشَهَادَةِ الشاهد الواحد فِي الطلاق ولما مَعَ يَمِينِ المَرْأَة ، وهو يسير على منهج الإمام احمد بن حنبل في ذلك ، قال الإمام أحمد : الشاهد واليمين إنما يكون في الأموال خاصة لا يقع في حد ولا نكاح ولا طلاق ولا إعتاق ولا سرقة ولا

---

(٥١) ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص٥.

(٥٢) للاستزادة حول هذه المسألة ينظر: ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص٧٥-٧٧. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ٧٥١هـ ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، (مصر/١٩٦٨م) ، ص٩٥-٩٦.

(٥٣) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧) والنسائي (٣٠١/٧-٣٠٢) والحاكم (١٧/٢-١٨) وعنه البيهقي أيضا وأحمد (٢١٥/٥) وقال الحاكم: صحيح الإسناد. قلت : ووافقه الذهبي وهو كما قالا . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني ، ط١ ، دار المعارف ، (الرياض/ ١٩٩٢م) ، ٤٨٧/١٢.

(٥٤) ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص٧٧.

قتل، وقد نص في رواية أخرى عنه: انه على أن العبد إذا ادعى أن سيده أعتقه وأتى بشاهد حلف مع شاهده صار حرا واختاره الخرقي، ونص أحمد في شريكين في عبد ادعى كل واحد منهما أن شريكه أعتق حقه منه وكانا معسرين عدلين ،فللعبد أن يحلف مع كل واحد منهما ويصير حرا ويحلف مع أحدهما ويصير نصفه حرا ولكن لا يعرف عنه أن الطلاق يثبت بشاهد ويمين(٥٥).

٦- **<u>الوسطية ليست المنهج الأسهل :</u>** بل نجد أن مفهوم الوسط في منهجه ليس الأسهل في مفهوم عرف الناس بل الأصوب والأصح ، ومن الشواهد على ذلك مسألة الاختلاف في معنى القرء ، فأحد القولين أنه الحيض، والآخر أنه الطهر، فقال: **" فهذا ما احتج به أرباب هذا القول استدلالا وجوابا ، وهذا موضع لا يمكن فيه التوسط بين الفريقين ، إذ لا توسط بين القولين ، فلا بد من التحيز إلى أحد الفئتين ، ونحن متحيزون في هذه المسألة إلى أكابر الصحابة ، وقائلون فيها بقولهم : إن القرء الحيض وقد تقدم الاستدلال على صحة هذا القول"** (٥٦).

٧. **<u>منهج الموازنات في الحكم على الناس عند ابن القيم :</u>** من قواعد الشرع والحكمة أيضا أن من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فإنه يحمل ، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر:**"وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"** (٥٧) ، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ، فتلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة ، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال:" **ما ضر عثمان ما عمل بعدها**" ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة " **أوجب طلحة** " ... ثم يعلق ابن القيم على هذه الروايات بقوله : " **وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في نظرهم أن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئين ونحوها حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه ، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة...والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان**

---

(٥٥) ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، ط١٤ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/١٩٨٦م)، ٥ /٢٥٩.

(٥٦) ابن القيم ، زاد المعاد ٥/٥٤٦.

(٥٧) رواه أبو يعلى وأحمد أتم منه وقال فيه : غير أني كنت عزيزا بين ظهرانيهم . ورجال أحمد رجال الصحيح. الهيتمي ، مجمع الزوائد ، ٩/٤٩٩.

التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة مالا يفعله مع غيرهم ".[٥٨]

ويقول ابن القيم أيضا :" **ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وأثار حسنة ، وهو من الإسلام بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده ، فلا يجوز أن يتبع فيها ، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين** [٥٩]". وأجمل أقواله فيمن اخطأ قوله : " **فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها**"[٦٠] ، فالقاعدة عنده : " **فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله...، ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ، ولم يعذب ووهبت له سيئاته لأجل حسناته** " [٦١].

٨- **<u>الحكمة ملمح من ملامح الوسطية :</u>** في معرض حديث ابن القيم ببيان معنى الحكمة ومدلولها في تفسيره وبعض مؤلفاته يتبين لنا وجه الشبه والعلاقة الوثيقة التي تربط بين معنى الحكمة التي قصدها ابن القيم وساق لها الشواهد والأمثلة ، وبين مفهوم الوسطية بشكل عام ، ولسنا هنا في صدد تقديم مفهوم الوسطية والاعتدال عند ابن القيم أو تقييم آرائه ، بقدر ما نريد أن نقدم طريقته ومنهجه وأسلوبه في الخطاب وقدرته في إصدار الإحكام والتأصيل الشرعي التي تتسم كما تلمسناه في جميع كتبة ومقولاته وأحكامه بالاتزان والفهم العميق والوضوح والاعتدال والمرونة والشمولية ، وذلك من خلال عرض أقواله المتناثرة في مؤلفاته حول معنى الحكمة ، منتهزين بذلك الفرصة لعرض اكبر قدر ممكن من أقواله وآرائه ولنطلع من خلالها عن كثب منهجه العام في التفكير وأسلوبه في إصدار الأحكام ، يقول ابن القيم : " **وأحسن ما قيل في الحكمة : قول مجاهد ومالك : إنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان و الحكمة حكمتان : علمية وعملية فالعلمية : الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا قدرا وشرعا**" [٦٢] ، وبهذا التعريف يتبين ويتضح أن الحكمة لا تقتصر على الكلام اللين أو الترغيب أو الحلم أو الرفق والعفو ، بل هي إتقان الأمور وإحكامها ، بان تنزل جميع الأمور منازلها ، فيوضع القول الحكيم والتعليم والتربية في مواضعها ، وتوضع الموعظة في موضعها ،

---

(٥٨) ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/د.ت) ، ١٧٧/١.

(٥٩) أعلام الموقعين ، ٢٨٣/٣ .

(٦٠) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٣٩/٢ .

(٦١) ابن القيم ، مدارج السالكين ،٣٢٩/١.

(٦٢) مدارج السالكين ، ٤٧٨/٢.

والمجادلة بالتي أحسن في موضعها ، ومجادلة الظالم المعاند في موضعها ، وكما قال تعالى : ﴿و ۞لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٦٣) ، ويوضع الزجر والقوة والغلظة والشدة والسيف في مواضعها ، وهذا هو عين الحكمة ، وقد قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٦٤) ، كل ذلك بإحكام وإتقان ومراعاة لأحوال المدعوين والأزمان والأماكن في مختلف العصور والبلدان ، وبإحسان القصد والرغبة فيما عند الكريم المنان(٦٥) ، ثم يذهب رحمه الله ليشير في موضع آخر معنى وتعريفا ثان للحكمة وهو: " **أن تعطي كل شئ حقه ولا تعديه حده ، ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه** " (٦٦) ، ويقول أيضا: " **الحكمة إذا : فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي** "(٦٧) ولا يكتفي ابن القيم عند هذا الحد ، بل يتعدى ذلك رحمه الله ليضع للحكمة أركان ودعائم ، فيقول:" **إن للحكمة أركان ودعائم تقوم عليها ، وأركانها التي تقوم عليها ثلاثة هي : العلم والحلم والأناة ، وآفاتها وأضدادها ومعاول هدمها الجهل والطيش والعجلة ، ولا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول** "(٦٨) .

٩- **الضرورات تبيح المحظورات** ، وهي قاعدة عظيمة من قواعد الشرع ، مفادها رفع الحرج عن عباد الله ، لأن الله ما جعل عليهم في الدين من حرج ، وقد مثل به ابن القيم لبيان مراده ، فقال : "وإن رفع الحرج والتيسير والسماحة والسهولة في هذا المنهج راجع إلى الوسطية ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالتنطع والتشديد حرج في جانب عسر التكليف ، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح ، وعدم تحقيق مقاصد الشرع ، ورفع الحرج والتيسير ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة في طريق الامتثال لأوامر الله تعين على تحقيق الغاية ، وهي تحقيق العبودية لله وحده ؛ فليس معنى اليسر ورفع الحرج أن نلتمس التخفيفات ، ونتتبع مواطن الرخص ، ونبحث عن الأسهل بعيدًا عن منظور الشرع ، ونتلمس زلات وعثرات العلماء فإن ذلك يؤدي إلى الانسلاخ من الأحكام ، والابتعاد عن الشرع والتهاون في مسائل الحلال والحرام في المطاعم والمشارب والمعاملات المالية ، فلا يجوز أن تنقلب الوسائل إلى غايات وأن تتغلب الوسائل على الغايات ، وليس رفع الحرج واليسر أن تمتنع المشقة بالكلية بل لا يخلو عمل من نوع مشقة لكنها

---

(٦٣) العنكبوت / آية : ٤٦.

(٦٤) التوبة / آية : ٧٣.

(٦٥) الصلابي ، الوسطية ، ص١٣٥.

(٦٦) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٤٧٨/٢ .

(٦٧) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٤٧٩/٢ .

(٦٨) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٤٨٠/٢ .

مشقة واقعة تحت حد الاستطاعة ، فالتكليفات فيها نوع مشقة ولو لم يكن فيها غير مخالفة الهوى لكانت نوع مشقة فهي.. إذًا مشقة معتادة لا يمتنع التكليف معها.

كما تتجلى وسطية الإسلام في مجالاته كلها:

ففي مجال الاعتقاد: جاء الإسلام وسطاً بين الملل ، فلا إلحاد ولا وثنية، بل عبودية خالصة لله في الربوبية والإلوهية ، وفي باب النبوة والولاية والصحابة توسط: فلا غلو من اتخذهم أرباباً من دون الله ، ولا جفاء كما جفت اليهود، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون. وأهل الإسلام الحق يتوسطون فيؤمنون بجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وجميع كتبه ويحبون أولياءه، ويترضون عن جميع صحابته رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفي مجال العبادة: تتألق فيه وسطية هذه الأمة، في مراعاة مقتضيات الفطرة، والتناسق البديع بين متطلبات الروح والجسد، بلا غلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاز المادي، فلا رهبانية ولا مادية بل تناسقٌ واعتدال على ضوء قول الحق تبارك وتعالى: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)** (٦٩).

وفي مجال التشريع والتحليل والتحريم: فتوسطت الشريعة في هذه المجالات بين اليهود الذين حرم عليهم كثيراً من الطيبات، وبين قوم استحلوا حتى المحرمات، والحكم بالتحليل والتحريم حق لله سبحانه **[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ]** (٧٠).

وفي منهج النظر والاستنباط: وازن الإسلام بين مصادر التلقي والمعرفة، ووافق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وعالم الغيب والشهادة، وإعمال النصوص ورعاية المقاصد واستجلاء القواعد، وحكم الشريعة وأسرارها، ووازن بين تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

وفي مجال الأخلاق والسلوك : مظهر من مظاهر الوسطية في هذا الدين بين الجنوح إلى المثالية والواقعية، وسطية تزكي المشاعر وتهذب الضمائر، وتسمو بالتفكير والشعور وتوازن بين متطلبات الفرد والمجتمع، وإعمال العقل والعاطفة، في تربيةٍ متوازنة وتنسيق متسق بديع، على ضوء المنهج النبوي: {إن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه }(٧١).

وفي النظام الاقتصادي: وازن الإسلام بين حرية الفرد والمجتمع، فيحترم الملكية الفردية، ويقرها ويهذبها بحيث لا تضر بمصلحة المجتمع، فجاء الإسلام وسطاً بين رأسمالية ترعى الفرد على حساب الجماعة، واشتراكية تلغي حقوق الأفراد وتملكهم بحجة مصلحة الجماعة. وفي مجال

---

(٦٩) سورة القصص:٧٧.

(٧٠) سورة الأعراف:٣٢.

(٧١) رواه البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (٢٥٦هـ) في الجامع الصحيح المختصر، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، (بيروت/١٩٨٧م) ، ٦٩٤/٢ (١٨٦٧) .

الإنفاق تتحقق الوسطية في قول الحق تبارك وتعالى:[**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً**][٧٢].

وفي **النظام السياسي:** جاء الإسلام وسطاً بين النظم ، مبيناً حقوق الراعي والرعية، حاضَّاً على العدل والقسط، معلياً قيم الحق والأمن والسلام، والسمع والطاعة بالمعروف، مترسماً المنهج الشوري المتكامل، سابقاً شعارات الديمقراطيات المعاصرة إلى تحقيق منافع البلاد والعباد في بعد عن الاضطراب والفوضى، محاذراً الديكتاتورية في الحكم، والاستبداد في الرأي: **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)** [٧٣].

ومما يجلي وسطية الإسلام: جمعه بين الأصالة والمعاصرة، وتميزه بالثبات والمرونة، وحسن التعامل مع المتغيرات، ووضع الضوابط للاجتهاد في النوازل واستيعاب المستجدات، فهو بثوابته وأصوله يستعصي على التميع والذوبان، وبمرونته يستطيع التكيف ويواجه التطور بلا جمود ولا تحجر بل يبني الحياة على القواعد الشرعية، والنواميس المرعية التي تستجيب لحاجات الأمة في مختلف الظروف والأحوال: [وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ] [٧٤].

وأخيرا فالوسطية هو منهج سلف هذه الأمة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وأستاذ ابن القيم (رحمهما الله) : " **فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ، يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم**" [٧٥].

---

(٧٢) سورة الفرقان:٦٧

(٧٣) سورة آل عمران:١٥٩.

(٧٤) سورة المائدة:٥٠.

(٧٥) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ) ، مجموع الفتاوى، المحقق : أنور الباز وعامر الجزار ، ط٣ ، دار الوفاء ، (د. م/٢٠٠٥ م) ، ٣ /١٦٨.

الخاتمـــــــة

ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها:

١- إن الوسطية والاعتدال هي خصيصة من خصائص الإسلام وركيزة من ركائزه.
٢- الوسطية والاعتدال منهج دعا إليه جميع علماء المسلمين ، وتوجوا سيرهم بالسير على هذا المنهج وطبقوه في حياتهم العلمية والعملية.
٣- يعتبر الإمام ابن القيم الجوزية واحد من أشهر العلماء الذين يمثلون الوسطية والاعتدال في منهجه رغم ما قيل عنه انه متعصب وحنبلي المذهب.
٤- أن مفهوم الوسط في منهجه ليس الأسهل في مفهوم عرف الناس بل الأصوب والأصح.

التوصيات:

نوصي بدراسة أشهر العلماء الذين نادوا بالوسطية وتميزت أعمالهم العلمية بالاعتدال وإدخالها كمفردات منهجية ضمن المقررات الدراسية .

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ) :

١. مجموع الفتاوى، تحقيق:أنور الباز وعامر الجزار ، ط٣ ، دار الوفاء ، (د. م/٢٠٠٥م)

ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت٣٥٤هـ) :

٢. الصحيح ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/ ١٩٩٣م)

ابن ماجه ، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (ت٢٧٣هـ) :

٣. السنن ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ، (بيروت/د.ت)

ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ) :

٤. لسان العرب ، ط١ ، دار صادر ، (بيروت/د.ت).

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (٥٧١هـ) :

٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، (مصر/١٩٦٨م)

٦. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، تحقيق: محمد حامد الفقي ، ط٢ ، دار المعرفة ، (بيروت/١٩٧٥).

٧. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/١٩٧٥) .

٨. زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، ط١٤ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/١٩٨٦) .

٩. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، تحقيق : محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي ، دار الفكر ، (بيروت /١٩٧٨).

١٠. الطرق الحكمية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/د.ت).

١١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط٢ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت/١٩٧٣).

١٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/د.ت).

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) :

١٣. تفسير القرآن العظيم ، ط١ ، دار الحديث ، (القاهرة/ ١٩٨٨م).

أبو داود ، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (٢٧٥هـ) :

١٤. السنن ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، (بيروت/د.ت).

أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) :

١٥. المسند ، شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت /١٩٩٩م)

البخاري محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ):

١٦. الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا ،دار ابن كثير، (بيروت/١٩٨٧م).

الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(٧٤٨هـ):

١٧. سير أعلام النبلاء مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة (بيروت/ ١٩٨٥ م).

الراغب الأصفهاني (٤٢٥هـ) :

١٨. مفردات ألفاظ القران، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، ط١ ، دار القلم، (دمشق /١٩٩٦م).

الشاطبي ، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت٥٩٠هـ):

١٩. الموافقات في أصول الفقه ، تحقيق : عبد الله دراز ، دار المعرفة ، (بيروت/د.ت).

الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (ت٣١٠هـ) :

٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت/٢٠٠٠ م).

المناوي محمد عبد الرؤوف :

٢١. فيض القدير شرح الجامع الصغير ، صححه احمد عبد السلام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/١٩٩٤م) .

الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر (ت٩٧٣هـ) :

٢٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر ، (بيروت/١٤١٢هـ)

ثانيا: المراجع

أنور الجندى :

٢٣. عالمية الإسلام ، دار الاعتصام ،

جمال بن محمد السيد :

٢٤. ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

سيد قطب إبراهيم :

٢٥. في ظلال القرآن ، دار الشروق ، (القاهرة/د.ت).

الصلابي ، علي :

٢٦. الوسطية في القرآن الكريم علي محمد ، ط٤ ، دار المعرفة ، (بيروت/٢٠٠٩م).

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية:

٢٧. الموسوعة الفقهية الكويتية ، ط٢ ، دار السلاسل ، (الكويت ١٤٢٧هـ) .

وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد :

٢٨.مجموعة من العلماء بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ، ط٢ ، (المملكة العربية السعودية/١٤٢٥هـ) .